الكونتس فالنتين دى سان بوا

للأستاذ كامل يوسف

جرى قلمي فى كلمتى عن المرحوم ولى الدين بك يكن بذكر الكونتس فالنتين دى سان بوا ، وبما أنها من الدوحة الشاعرة التى أنجبت لامرتين شاعر الجمال والحب ، ومؤلف عشرات الكتب التى تفيض بالشاعرية والخيال الخصيب ، أحببت أن أكتب كلمة عنها لتعريف المصريين بها

فهى حفيدة لامارتين ، أو على الأصح ابنة ابنة أخته ، ورثت عن خال أمها الروح الشاعرية وسمو الخيال ، فكانت شاعرة من الطبقة الأولى لا يشق لها غبار. ويمتاز شعرها بالروح الصوفية . وهو ككل شعر صوفى مبهم يحتاج للشرح والتعليق حتى يدرك القارىء كنهه . وقد بدت هذه النزعة فى ديوانها الشعرى الذى اشتهرت به ؛ ويكاد يلمس القارىء لهذا الديوان روح نيتشه فى كتابه « هكذا قال زرادشت » ، بل إنه يسير على نمطه في الأسلوب. وقد أبديت رأيي هذا فى عام سنة ١٩٢٨ للأدباء الذين كانوا يحيطون بها فلق منهم التأييد ، لأن الكونتس كانت تعجب بنيتشه كشاعر فذ ، خصوصاً فى سفره « هكذا قال زرادشت » وكانت لا ترى فيه فيلسوفاً له مدرسة فلسفية خاصة

وهذه الروح الصوفية هى التى حدت بها إلى الاقامة بمصر ، فهى زوجة وزير من وزراء فرنسا وزارت أسبانيا ، وشاهدت هناك جامع قرطبة ، فأعجبت بالفن العربى ، واتخذ هذا الاعجاب

فى دائرة الانتاج الأدبى حوالى منتصف القرن الماضى حين ثبت أن الحاجة ماسة فعلا إلى ضرورة الاستمرار فى هذه الناحية من نواحى العلم والأبحاث ، وإنى لا أتردد فى القول بأن كل الفضل يرجع إلى المستشرقين الثلاثة ميكيلى آمارى وجرارنا ديواسكولى وانيازيو جويدى فى كثير مما شرع فيه ومما تم من التقدم وإيقاظ الهمم فى هذه الفترة . كما أنه كان من أسباب إنجاح هذه الحركة العلمية الجديدة المساعى القيمة التى قام بها هؤلاء الأنصار الثلاثة الذين استوفت أبحاثهم ودراساتهم وانتشرت فى العالم أجمع

دكتور
أومبرتو ريزيتانو

صورة فعلية فأرادت أن تلمس حياة الشرق وتختبر روحه ، فتركت فرنسا بما فيها من مدنية وجاءت إلى مصر باعتبارها المركز الروحى للبلاد الشرقية ، وكان هذا الولع بروح الشرق المتصوفة دافعاً لها على إصدار مجلتها الشهرية « فينكس » للدفاع عن أمم الشرق قاطبة . وقد أنفقت على هذه المجلة مالاً وفيراً ، وظلت أكثر من عامين وهى تسخر قلمها البديع لهذه الغاية السامية ولكنها لم تستطع الاستمرار فى إصدار مجلتها لنضوب مواردها من أملاكها بمقاطعة سان بوا بفرنسا ومن ريع مؤلفاتها الكثيرة ، وذلك عند هبوط سعر الفرنك فى سنة ١٩٢٨

وقد بدت الروح الصوفية عند الكونتس دى سان بوا فى أجلى صورها عند ما لجأت إلى أسلوب مبتكر للتعبير عن المعانى الباطنية للحقائق الظاهرة ، وقد أطلقت على هذا الأسلوب لفظ « الميتا كوري » وقد جاهدت كثيراً فى نشره فى فرنسا وأمريكا وأنفقت المال فى سبيل تقريبه للأذهان ، ولكن غموضه كان عقبة كأداء فى سبيل ذيوعه . وقد نشرت كثيراً من الرسوم بريشتها لإيضاح غاياتها ، ولكن العالم الأدبى لم يفهم ما تريده الشاعرة من هذه الحركة الصوفية . وقد حاولت أنا وصديقى الشاعر فولاد يكن أثناء اتصالنا بها بحلوان أن نفهم هذه الحركة كما يجب ، فلم نخرج منها بأكثر من أنها نوع من الرمزية فى الشعر والرسم ترمى إلى إبراز المعانى الباطنة لظاهر الأشياء . ولما رأت عدم استعداد العقول لفهم نظريتها — التى تقول إن فنانى الاغريق كانوا يعملون بها — اتجهت للدفاع عن بلاد الشرق المهضومة الحق ...

وقد أقامت الكونتس دى سان بوا بحلوان بقصر محمد بك أنسى بشارع سيد احمد باشا . وكانت دارها ندوة للأدباء زارها فيها الدكتور ماردريس المستشرق الفرنسى المعروف وقدم لها ترجمته الفرنسية لكتاب « ألف ليلة وليلة » وكتب الاهداء بالعربية : « هدية من الشيخ الماردريسى » . وكان أول من اتصل بها من المصريين الشاعر الكبير فولاد يكن ، وحدث ذلك على أثر زواجه من مدام (س) الفرنسية (وهى زوجة أحد كبار كتاب فرنسا) التى استقدمتها وزارة المعارف لتتولى نظارة مدرسة بنات الأسر الراقية . ومع أن هذا الزواج لم يطل فقد كان سبباً فى تعرف الأستاذ فولاد يكن بالكونتس ؛ وقد رأت فيه الشاعرة مواهب شعرية تنبئ عن مستقبل زاهر فى عالم الشعر فاحتضنه ،

وجعلته كابنها ، وأقام بمنزلها بحلوان يأكل ويشرب ويتريض معها كأنه فرد من أسرتها . وقد أنتجت هذه الصداقة ثمارها إذ قدمته لدور النشر الفرنسية فنشرت له بعض مؤلفاته الشعرية والنثرية مقدمة بقلمها البليغ

وكان يجتمع فى دارها الأدباء . وقد قدمنى فولاد بكن إليها كأديب ناشئ مهتم بالأدب السكسونى وخصوصاً فن برنارد شو الذى كنت أؤلف فيه فى ذلك الوقت كتاباً عن آرائه فى الحياة والأدب والفن والسياسة . وكانت تعرف عنى هذا الاهتمام فكانت تدعونى « برنارد شو الصغير » . وقد قدمتنى فى إحدى حفلاتها الاسبوعية لاحدى زوجات سلطان تركيا المخلوع التى قدمت إلى مصر وألقت بنفسها فى النيل عند قصر النيل . وكانت هذه الأميرة على غاية من جمال الخلق والخلق ، تركت فى نفسى أثراً لا يمحى ، إذ تمثل لدى فى هذه اللحظة عظمة الملك ممثلة فى شخص هذه السيدة الكريمة ؛ وهى فى رزانتها وصمتها أبلغ منها وهى فى أبهة العرش . وقد حدث أن ثارت بين أديبين مناقشة عن أدب هوجو ، وكان أحدهما يرى أنه فن مزخرف أجوف ، وكان يعارضه الآخر بأنه أدب حى ، وأبديت رأيى فى هذه المناقشة بأسلوبى الفرنسى العاجز ، وكنت وقتئذ لم يتضح على بالفرنسية لانصرافى للأدب الانجليزى ، فسخر من أسلوبى صديق فولاد بكن ، ونعته بأنه فرنسى صينى ، ولم ينجنى من حملته علىّ إلا السلطانة ، فقد عطفت على بأن قالت : إن أسلوبى كإنسان لم يدرس الفرنسية بالمدارس لا بأس به . وقد حمدت لها هذا الموقف الذى خلصنى من المأزق الذى تورطت فيه

وتشاء الصدفة أن أقرأ إبان تعرفى بالشاعرة الكبيرة قصة « روفائيل » ترجمة الأستاذ الكبير احمد حسن الزيات ، وأردت أن أذكرها اهتمام مناق مصر بأدب جدها لامرتين ، فذكرت لها أننى أقرأ ترجمة عربية لرفائيل تكاد فى بلاغتها أن تكون صورة ثانية للأصل الفرنسى ؛ وذكر الاستاذ فولاد بكن تمكن الأستاذ الزيات من لغة العرب والفرنسيين مما جعل الترجمة تحفة من التحف فى أدبنا المصرى الحديث ، وقد أعجبت الكونتس بذلك كثيراً . ولكنها كانت لا ترى فى « رفائيل » العمل الفنى الذى يجب أن يخلد به اسم جدها بمصر ، وقالت فى ذلك إنه مؤلف يسوده الاغراق فى المبالغات مما جعله فى مرتبة أقل من غيره من المؤلفات الأخرى ، وذكر الدكتور منصور بك فهمى فى مقدمته لترجمة الأستاذ الزيات مثل هذا الرأى ، وأن ذلك قد دعا لامرتين نفسه إلى إعادة النظر فى مؤلفه هذا فى الطبعات التالية فأبعد عنه بعض المبالغات العاطفية التى أخذها عليه النقاد

والكونتس دى سان بوا رسامة ماهرة ترسم بالزيت وتحفر على الخشب ويشوب رسومها الروح الصوفية ، وهى تزين دارها بهذه الرسوم . وقد بلغت براعتها فى الرسم أنها كانت تحفر صورتها على الخشب فكانت ملامحها تنطق كأنها رسم فوتوغرافى . وقد انصرفت فى السنين الأخيرة إلى التحرير الصحفى وتولت رياسة تحرير أمهات الصحف الفرنسية بمصر . ويمتاز أسلوبها الفرنسى بالجزالة الكلاسيكية ، وقد اكتسبت أثناء إقامتها بمصر صداقة الشخصيات البارزة فى المجتمع المصرى

وأختم كلمتى عنها بما تبديه من عطف على الشرقيين ، فقد كانت تنشى حفلات العرب الذين يعيشون فى الخيام بقرية حلوان البلد الواقعة على النيل فى الليالى القمرية ؛ وكانت تعجب بسمرهم ؛ وكانت تنثر على أطفالهم النقود ، لذلك كانوا يحفظون لها هذا الجميل . وقد أعربوا عن عرفانهم لهذا الجميل فأهدوا إليها كلبا من كلابهم الضخمة ، أطلقت عليه اسم « بطل » وكان هذا الكلب موضع عنايتها ، وكانت توكل إليه حراسة دارها ، وعند ما تركت حلوان وأقامت فى إحدى فنادق القاهرة الفخمة أخذته معها ، وكانت تفخر به على الدوام لأنه (عربون) مودة لا يصح التفريط فيه

كامل يوسف
عضو بالمعهد الفلسفى البريطانى

حاشية : يأسف الكاتب لعدم إيراد أمثلة من شعر الكونتس ورسومها لأن مكتبته فى طريقها إلى كوم حمادة حيث سيحل ترحاله .

ظهر حديثاً

لحن الخلود

ديوان العاطفة السامية والوجدان الصادق

للشاعر الفذ مصطفى على عبد الرحمن

رسوم فنية من ريشة الرسام بدر أمين

يطلب من مكتبة فكتوريا الشهيرة بالأسكندرية
أو من مؤلفه بمعمل الفزاز